بين التصوف واليوجا

الإنسان فى حالته العادية على الصعيد المادى يجد نفسه دائما تحت رحمة الغير من أمثاله، وكلما ازداد إحساسا بالآم الحياة التى تنصب عليه ممن حوله، وكلما حاول رد الكثير بمثله ودفع الشر بالشر والوخز بالوخز ـ ازدادت شبكة الحياة المادية إطباقا عليه وتقييداً له. ولكن مع هذا فإن الإنسان الذى وصل إلى شىء من صفاء الروح يستطيع أن يعيش فى غمرة الحياة، لا، بل يستطيع أن يكون من زعماء هذه الغمرة وهذا الصراع، ومع ذلك يستطيع أن يحلق مرتفعا بنفسه عنها فيرى الدنيا على حقيقتها المجردة، يرى فيها لعبة أطفال بين أشباه الأطفال من الرجال والنساء، فهو ـ وإن اشترك فى اللعبة كأحسن ما يكون الاشتراك ـ يعلم علم اليقين أنها لهو ولعب، وليست هى حقيقة الحياة ولا لبُها. فى هذه الحالة يبتسم والدمع يترقرق من عينيه، ثم يكف عن البكاء إطلاقا، وتحتل الابتسامة مكان

الدموع؛ ذلك لأن الأشياء إذا نظرت على حقيقتها لم يجد الناظر إليها بداً من الابتسام ساخراً من نفسه ومن غيره كما تقول الحكمة (إن عظمة الفرد عند تلاشيه)

وعندما يجيل الإنسان النظر حواليه ويرى الدمى الصغيرة التى أوقف الناس عليها جهود حياتهم متناحرين فى سبيلها كأنما هى أهداف الحياة الحقيقية وغاياتها ـ لا يمنع نفسه عن الابتسام إذا استيقظت فى نفسه القدرة على تعرف الأشياء على حقيقتها. والدرس الذى نتعلمه من هاتين القاعدتين هو أن نرتفع فوق الأحداث الشخصية، وأن نعمل على تحقيق الفردية، وأن نسعى للوصول إلى الوعى وإلى معرفة الذات (الأنا) يجب أن يسمو الإنسان حتى يستطيع أن يسمع تفاهات الأشياء وهو يبتسم مطمئنا لعلمه بحقيقة النفس وقوتها وبما قدر لها.

إن تعاليم اليوجا على طريق الروحانية الحقيقية والتصوف الصحيح لا تدعو الناس إلى الجلوس دونما عمل إلا التأمل كما يفعل بعض المشعوذين من الهنود. . . . بل إن تعاليم اليوجا أن واجب الإنسان الذى ميزه به الله هو أن يساهم بعمل من أعمال الدنيا، وأن من ينفع الناس بعمل ما يعتبر من المحسنين إلى الإنسانية.

إن اليوجا تؤمن بوجود قوة إلهية دافعة إلى الخلق والإبداع فى كيان كل رجل وكل امرأه، وتحض على تمكين هذه القوة من أداء

رسالتها على أحسن وجه، وأن الحياة التى لا يتم خلالها عمل ينفع الناس لا خير فيها، وأن العمل المنتج النافع سبيل إلى التقدم الروحى، بل هو عنصر من عناصره.

إن اليوجا لا تجد جمالا فى القيام بالعمل كالآلة الصماء، فهذا عمل لا خير فيه ولا جمال، ولكنها تعلم الناس أن أحط الأعمال وأقلها قيمة، فيها متعة إذا ما أقبل عليها الإنسان مخلصا وجدها رائعة ووجد فى أدائها سروراً يهديه إلى آفاق أشمل وأعمق. . . . إنها تعلم الإنسان الطموح الحقيقى.

ـ اقتل الطمع، ولكن اعمل كما يعمل الطامحون، وتمسك بالأمل الذى يدفعك إلى أن تعمل لترضى بعملك غريزة حب الخلق والإبداع التى وضعها الخالق فيك.

وتقول قاعدة أخرى من قواعد اليوجا ـ اقتل الرغبة فى الحياة. . . ولكن احترم الحياة كما يحترمها الراغبون فى الحياة. . وهناك إذًا خيط دقيق بين الاتجاهين. . . . هو ألا تكون عبداً للحياة. وأن تقتل تلك الرغبة التى تحملك على الخوف من الموت، وأن تكف عن النظر إلى الموت نظرة الرعب والهلع، سواء أقبل عليك أو أطبق على من تحب. . . إن الموت طبيعى كالحياة تماما. . . إنه لعسير أن ننفض عنا الشعور القديم بالفزع من فناء الجسد، ولابد للإنسان من قتال مرير قبل أن يصرع هذا الوهم البالى الذى علق بالبشرية بالرغم من الإيمان بحياة أخرى.

وليس معنى هذا عدم احترام الإنسان لحياته الجسدية؛ فالجسد هيكل الروح والإنسان محتاج إليه فى مرحلة تطوره، وبدونه يكون غير قادر على العمل للوصول إلى الصفاء الروحى، ولكن تعلم كيف تعيش كل لحظة من حياتك معيشة قويمة صحيحة معتدلة، عارفا لها حق قدرها، غير آسف على ماض أو خائف من مستقبل.

إن الرجل الواعى لا يخاف الموت ولا يطلبه، فهو لا يهاب الحياة، ولا الموت، ولا يتعلق بأيهما، ويرحب بهما جميعا، ومثل هذا الرجل أو المرأة لا يقهر، وليس فى الحياه أو الموت ما يرهبه، وإن من يعمل إلى هذه الدرجة يمتلئ بقوة ينبعث إشعاعها وأثرها فى العالم المحيط به. . . كيف نصل إلى هذه الدرجة من الاتزان والاسترخاء؟ هذا هو الهدف.

يجب أن يكون الإنسان دائما سيداً لا عبدا لمباهج الحياة. وفى بعض الطرق والمذاهب توصى التعاليم بتنمية الإرادة وتقويتها، وفى سبيل ذلك تفرض على المريدين رياضات تتضمن أموراً كريهة قل من يستطيع الصبر عليها، ولكن فرض هذه الرياضات ما هو إلا لتقوية الإرادة فى الإنسان، وليس لأن فى الأمور الكريهة نفسها فائدة أو لأن الحرمان نفسه فيه فضيلة، إنما الفكرة كلها فى أن تتمرس الإرادة بالمقاومة والصبر على الحرمان من الأشياء والصبر على الأعمال التى لم يتعودها الإنسان، فإن ممارسة تلك الخطة واتباعها يولد حتما قوة الإرداة، إن مبادئ اليوجا تدعو إلى عدم الجرى وراء أى نوع من

الترف وألا نتصور أن السعادة الحقة تكسب بمثل هذه الوسائل. وكذلك تدعو الروحانية إلى البساطة فى العيش؛ فإنها ترى أن الإنسان إذا كثرت الإشياء التى يملكها كان عرضة لأن يدع تلك الأشياء تتملكه بدل أن تكون ملكا له. فيصبح عبداً لها بدل أن يكون سيدها. وكلما تقدم الإنسان روحيا مال ذوقه إلى البساطة.

والرجل الروحانى ليس ذلك المتجهم للحياة بها، العابس المقطب جبينه إظهاراً لنفوره منها، إن تفهمه للحياة يرفعه فوق مخاوف البشر، وعلمه بمصيره يرفع معنوياته ويمكنه من أن يعلو فوق العاصفة ويتسنم موج بحر الحياة مستسلما لاندفاعها، ترفعه كل موجة على صدرها فلا يتبلعه الموج. . . . إنه يجد السلام والطمانينة فى هدأة رحاب العقل. . . . إنه أسعد الناس؛ لأنه تخلص من الخوف، إنه نبذ الكراهية والحقد وراء ظهره وأحل مكانهما الحب. . . إنه متفائل بطبعه ويرى أن الحب يملأ الوجود كله.

هذه كلها حقائق تشرق معرفتها على الروحانى وهو يتقدم فى الطريق فتزداد سعادته. ابحث عن مصدر الشر واقتلعه من القلب. . . . عش لا فى الحاضر ولا فى المستقبل ولكن فى الأبد، إن هذه النبتة الجبارة لا تعيش فى ظلال الأبدية. إن هذه الوصمة فى جبين الوجود تمحى فى جو التفكير الأبدى.

إن الرجل الذى جاءه الإشراق الروحى، حتى فى أخفت درجاته يصبح شخصا آخر ينبثق عنه فكر من نوع آخر غير ما ينبثق من الأفكار ممن حوله من الناس. . . إن له مُثلا عليا غير مثلهم؛ ولذلك تختلف آراؤه عن آرائهم. ولموجات فكره أثر على مجموع موجات أفكار العالم، إنها تعمل فيها عمل ورقة الترشيح فى الماء العكر، إن العالم فى حاجة إلى وجوده وإلى أفكاره.

ولكن حذار من السقوط إلى هاوية احتقار الحياة؛ فإن احتقار الحياة الدنيا لا يقل سخفا عن زيادة التعلق بها واعتبارها كل شىء، يجب علينا أن نضع أمام أعيننا أن علينا واجبات نؤديها ودروسا نتعلمها، ولن نستطيع التقدم حتى ننجز ذلك على الوجه الأكمل.

تقول تعاليم اليوجا:

امض قدما فى وسط الطريق، ولا تنحرف فيه إلى أقصى اليمين ولا إلى أقصى اليسار، مستمتعا بما يحوطك من جمال يكتنف الطريق. مستروحا ما يهب عليه من علوى النسمات التى تبعث فيك البهجة. فإن جن الليل فليكن اطمئنانك إليه كفرحك بالنهار، فكل حسن وجميل.

واعلم أن فى نفسك نور العالم. . . النور الوحيد الذى يمكن أن يلقى ضوءًا على الطريق، فإن لم تستطع أن ترى النور الذى فى نفسك فمن العبث أن تبحث عن النور فى أى مكان آخر.

واسع إلى طلب السلام الذى لا يعكر صفوه شىء، والذى تنمو فيه الروح كما تنمو الزهرة المقدسة على سطح المياه الساكنة. . . . ذلك السلام الذى يأتى من أعماق النفس، فتمتع به حتى ولو كنت فى غمار معركة الحياة. . . لافرق بين أن تكون القائد الأعلى أو الجندى المغمور ـ فمصيرهما واحد.

سلام النفس التى وعت واطمأنت، ذلك السلام الذى لايكدره شىء، ولا يناله إلا من استيقظت روحه وفتح عينيه على وجوده الحقيقى، فأصبح فى حالة يستطيع معها أن يفرد فى كيانه ووجدانه مكانا ينطوى فيه على نفسه عندما تهزه معركة الحياة وأحداثها فيجد فيه السلام مرفرفا ناشراً عليه جناحيه، سلاما يجل عن الوصف ولا يدركه العقل؛ لأنه خارج نطاق العقل.

هذا المكان من وجدانه هو المحراب المقدس والمرفأ الآمن الذى يلجأ إليه إذا هبت عليه أعاصير الحياة، فيحتمى فيه من قصفها وهديرها.

فاجعل هدفك إذن الحصول على هذه الثروة، هذا العلم الذى تحتاج إليه، العلم اللدنى، علم الروح (اليقين) هذا العلم الأعلى لا تبلغه إلا النفس الصافية، أما النفوس الأخرى فلا تعيره انتباها؛ لأنها لا تدرك وجوده.

استمع إلى الصوت الذى ينبعث من قرارة نفسك، انظر إلى داخل نفسك فى ثقة وإيمان ورجاء، اطلب الطريق بالتراجع إلى داخل

نفسك حيث يسود السكون، وأنصت إلى صوت روحك، إنه سيفضى إليك بأمور عظام.

فى ذلك السكون العميق تتفتح قوى العقل الروحية، ويفيض منها إلى العقل الواعى سيل من الحقائق العظمى المختزنة فى خفاياها. ومن هنا تفيض الإلهامات، ومن هذا المعين يتلقى الحكيم حكمته، والشاعر فلسفته، والمصور خيالاته، وكلما تقدم الوعى الروحى ازداد اعتماد الإنسان على صوت الروح، واستطاع أن يميز ذلك الصوت العلوى من هواتف الغرائز الدنيا من كيانه وعقله، فيتعلم أن يسلم الروح قياد نفسه حتى تعتمد على تلك اليد العليا التى تأخذ بيدها وتقودها إلى سبيل الرشاد.

الغيب المحجوب

الإحساس بالغيب إحساس فطرى أصيل فى الإنسان، وتقف قدرات الإنسان ووسائله المختلفة عند الحدود التى لا يستطيع أن ينكر ما وراءها من الغيب المحجوب، لمجرد أنه لا يقع تحت حواسه أو قدراته أو وسائله العلمية.

أما أن الإيمان بالغيب أصل من أصول الفطرة الإنسانية، فيؤيده تاريخ الإنسان منذ أقدم العصور فى مختلف بقاع الأرض وعلى اختلاف حظه من البداوة أو التطور الحضارى ؛ فإن الإنسان أنى كان وحيثما حل من الزمان أو المكان أو المستوى الفكرى والاجتماعى ـ كان وما يزال يؤمن بأن وراء هذه المظاهر المادية (خلفية) لا تبلغها حواسه ولا تدركها وسائله. وهذه حقيقة جامعة تغمر نفوس البشر جميعا، وإنما يقع الاختلاف بينهم فى (تصور) هذا الغيب وفى أسلوب كشفه والنفاذ إلى حقيقته.

نجد ذلك عند الأمم البدائية التى كانت والتى ما زال بعضها يعيش فى الغابات والكهوف والمجاهل النائية، كما نجده فى التاريخ القديم للأمم العريقة ـ فى مصر وفى الهند وفارس وغيرها من الأمم ـ كما نجده حاليا فى البلاد التى بلغت شوطا بعيداً من الحضارة والعلم.

وإن الإيمان بالغيب ليس إلا تلبية لنداء الفطرة المنطلق من أعماق النفس البشرية مهما تراكمت عليها الضغوط وأطبقت عليها الظلمات.

ومن الأسئلة التى نسوقها للبحث:

هل يصح فى منطق العقل ومنطق العلم الواقع أن تكون الحواس هى الحكم الأول والأخير فى قضية الإيمان بالغيب؟

إن الحواس الخمس المعروفة وهى اللمس والنظر والشم والسمع والذوق لم تعد وحدها هى الحواس التى تعكس للإنسان حقيقة ما حوله من الأشياء، فقد عرف العلم الحديث حواس أخرى، منها ما يسمى بالحاسة السادسة.

وقد أثبت العلم كذلك وجود ملكات نفسية منها ما يسمى بالجلاء النفسى أو الشعور على بعد أو قراءة الفكر (تلباثى Telepathy)

والتوجيه على بعد Telergg

وتفسير الأحلام Dream Jnterpritation

واستطلاع المستقبل Precognition

والتنويم المغناطيسى Magnetidm

والكشف وتحضيرالأرواح Exceptional insight - lairvoyance Spiritu-alism

وكل هذه الملكات النفسية تتجاوز آفاق الحواس المعروفة، وتحطم الحواجز التى كانت تقف عندها هذه الحواس، والتى كانت تبرز الزعم بأنه ليس وراء عالم الشهادة إلا العدم المطلق والتصور الخرافى العقيم. . .

وقد نستطيع الجزم بأنه ليس كل ما لا نراه غير موجود، وأنه ليس كل ما لانسمعه بآذاننا غير موجود أيضا. . . وهكذا نستطيع أن نقول ذلك أيضا عن بقية الحواس.

وهناك أمثلة كثيرة عن حدوث (التلقى) من عالم الغيب، كسماع الأصوات الصادرة عن بعد بعيد، وتقابل الأحاسيس والمشاعر بين شخصين، ورؤية الصور التى تحجبها المسافات الطويلة. . . . وغير ذلك من القدرات الخاصة فى الاتصال بعالم الغيب المحجوب عن الحواس.

(ونتحدث عن ذلك بشىء من التفصيل فى باب البصيرة والجلاء النفسى)

وقد تثبت لنا الحياة أن هناك من العلم ما هو محرم على الإنسان، ذلك العلم اللانهائى للكون والحياة، علم الغيوب المحجوبة عن الأسماع والأبصار وغيرها من ملكات النفس وسائر الحواس. فلو كشف له كل ما فى الكون من غيوب لصعق.

هى إذن نعمة كبرى يتمتع بها الإنسان، حين يلتزم حدوده التى أحاطته بها العناية الإلهية، وليست (نقيصة) فيه يحاول التمرد عليها بالكفر والإنكار.

وإنما اختص الله وحده بعلم الغيب؛ لأنه الحقيقة الكبرى المحيطة بكل ما فى الوجود: قال تعالى فى سورة الجن:

﴿عَالِمِ الْغَيبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَي غَيبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضي مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ رَصَداً﴾(١)

وحتى هؤلاء الرسل لهم طاقة محدوده للاستقبال، ومحيط معين للمشاهد الغيبية إن بدا لأحدهم أن يتجاوزه صعق.

وهذا ما حدث لموسى عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَي الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّي رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَي صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبتُ إِلَيكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤمِنِينَ﴾(٢)

(١) الجن الآيتان: ٢٦ و ٢٧
(٢) الأعراف من الآية: ١٤٣

إذن فالإنسان محدود الطاقة تجاه هذا الغيب مهما علت قدرته أو سمت منزلته، وعلى حافة هذا الامتداد الغامض تقف الإنسانية حائرة، ويقف العلم على شاطئه حائراً مشدوها، إنه يستطيع أن يحلل ويعلل الظواهر، ولكنه عاجز كل العجز عن إدراك ما وراء هذه الظواهر من حقائق تتحدى العقول، فإن التقدم العلمى والتكنولوجى لا يعنى إطلاقا نكران عالم الغيب أو زواله، إنما يحقق العلم انتصاراته بتلك الدوافع التى تؤرق الإنسان تجاه عالم الغيب للكشف عنه.

وهذا (أينشتين) أعلم علماء الأرض فى الكون وظواهره يتحدث فى تواضع العلماء عن شعوره أمام هذه الغيوب فيقول ما ترجمته:

«إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها، تلك التى تستشعرها النفس عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى.... إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حى كميت... إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع فجره، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة.... أحكم ما تكون، ونحس أن وراءه شيئاً هو الجمال.... أجمل ما يكون. وهى حكمة وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا فى صور لهما بدائية أولية.

وهذا الإدراك للحكمة، وهذا الإحساس بالجمال فى روعة، هو جوهر التعبد عند الخلائق».

ويقول أينشتين كذلك:

«إن دينى هو إعجابى، فى تواضع، بتلك الروح السامية التى لا لاحد لها، تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة، وهو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام. إن هذا الإيمان يؤلف عندى معنى الله».

ويقول. أ. كريسى موريسون: الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك فى كتابه (العلم يدعو للإيمان)

«إن المعارف الجديدة التى كشف عنها العلم، لتدع مجالا للاعتقاد بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة. وهذا ضوء يلقى على الخفاء الواسع الذى يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهريا، وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام أسمى، أى إلى وجود الخالق».

ثم يعود فيقول:

«إن وجود الخالق، تدل عليه تنظيمات لانهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة، وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر

الفاخرة لذكائه، إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون. وإنى لأورد قول (اوسبورن) فى هذا المجال:

«بين جميع الأشياء التى لا يمكن إدراكها فى الكون، يقف الإنسان فى الطليعة. وبين الأشياء التى لا يمكن إدراكها فى الإنسان، تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف وبحث وقدرة على تذليل العقبات»

ويقول أينشتين:

«إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون، هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبل حافز»

إذن فليس معنى ظواهر الغيب أن يقف الإنسان عاجزاً معطلا أمام الغيب المحجوب فى الكون والحياة، فالكون ملىء بالآيات الكثيرة التى تحث على التفكير فى ملكوت السموات والأرض، وتثير فى العقل البشرى أشواقه إلى المعرفة، وتدفع بالعلم لاستجلاء حقائق الوجود.

غير أن عالم الغيب مثل الطموح كلما لاحقه الإنسان فى صورة ما، تراءت له على البعد صور أخرى عديدة بعيدة المنال فلا يملك إلا ملاحقتها من جديد.

وإن لعقيدة الإيمان بالغيب ثماراً كثيرة، إنها تثمر فى نفس المؤمن (الوعى الكونى) الذى يوثق الصلة بينه وبين الكائنات، ويشعره

بالتعاطف والألفة مع الوجود، فيحس أنه جزء من كل، يجمعه قانون الجاذبية والتكامل والخلود، وسوف يفتح العلم آفاقا تؤيد ما لعقيدة الإيمان بالغيب من مفاخر تعود على الإنسان حتما بالخير.

obeikandl.com

فلسفة وبصيرة بوذا

فى الواقع أننا حينما نقترب من البوذية نجد أنفسنا إزاء عقيدة إنسانية فلسفية النزعة بعيدة الأهداف، وحينما تطالعنا شخصية بوذا نجد أننا تلقاء شخصية جديرة بالحب والإعجاب والتقدير، سواء رضينا عن مذهبه أو رفضناه وأنكرناه، وسواء نظرنا إلى البوذا من ناحية صفاء نفسه وطهارتها وعذوبة روحه ولطافتها، وجرأة أفكاره وأصالتها أو من ناحية بعد مدى تأثيره فى ثقافة الهند وتوجيه تفكيرها، فإنه ليس من السهل أن نجد له نظيراً من غير الأنبياء والرسل عليهم السلام يساميه فى نبالته، أو يقاربه فى تماسك منطقه وقوة حجته.

وتختلف الآراء فى بوذا ـ فهل هو موجد دين؟ أو خالق فلسفة حياة؟

وربما كان الجواب عن ذلك يتوقف على مدى فهمنا للفروق ما بين معنى الدين ومعنى الفلسفة. فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا ومتصرفة فى أقدارنا، وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كُشفت لنا فإن بوذا بمقتضى هذا التفسير لم يكن

صاحب دين، وذلك بالرغم من أن أتباعه رفعوه بعد موته بقرون إلى مرتبة الآلهة، وقبلوا كلماته باعتبارها حقائق لا يتطرق إليها الخطأ، ولكن هذا كان من صنع الأتباع، وليس من صنع بوذا نفسه الذى كان صاحب فلسفة أكثر بكثير مما هو صاحب دين.

ومما يؤخذ على البوذية أنها تؤكد جانب الحزن فى الحياة، وتنزع نزعة تشاؤمية. وكون البوذية شديدة الشعور بوجود الشقاء حقيقة لا تنكر، ولكن لا يمكن وصفها ـ بشكل مطلق ـ ديانة ميالة إلى التشاؤم.

*** ومن أقوال بوذا عن النرڤانا:**

يا أصدقائى، إن القضاء على الجشع والقضاء على الكراهية، والقضاء على الوهم... ذلك كله يا أصدقائى هو (النرڤانا) وعلى ذلك فإن النرڤانا، ليس معناها القضاء على الحياة وإخماد جذوتها، وإنما معناها قهر الشهوات، والتغلب على النية السيئة والجهل والغضب والخوف وكل ما يجعل الحياة عبئا ثقيلا وهما مقيما. فمن استطاع ذلك يكون قد وصل إلى النرڤانا.

وليست النرڤانا الوصول إلى العدم والفناء، وإنما هى الوصول إلى أسمى مراتب الاستنارة الفكرية والسيطرة التامة على النفس والإفلات من الشهوات المنهكة والمطامع والإغراءات والأهواء والنزوات.

والترقانا فى رأى المفكرين الهنود موقف إيجابى، وتسوية مناسبة لمشكلات الحياة، وطريقة ميسورة للخلاص من الآمها وأحزانها.

*** ماذا عن بوذا؟**

ولد بوذا قبل المسيح عليه السلام بستة قرون فى شمال الهند بالمنطقة المعروفة باسم مقاطعة بهار، وأصل اسمه (سد ذارثا) ومعناها الذى بلغ أمله، واسم أسرته جوتاما ـ وكلمة بوذا معناها المستنير.

ويقال إن والده كان من الأعيان بهذه المنطقة ومن أمرائها، حيث ورث بوذا إمارة أبيه؛ لأنه كان الوراث الوحيد لثروة أبيه.

وكان بوذا فى أول حياته وفى ريعان شبابه أميراً شريف النسب، منحدرا من سلالة الفاتحين الآريين، جميل الصورة، جذاب المحيا، حلو الشمائل، مرهف الحس. ولقد ظفر بالحب وتزوج من حسناء فاتنة، ورزق طفلا سماه (راهولا) ولكن كل ما حفه من أسباب الثراء ودواعى المتعة، ومؤهلات المعيشة الراضية الناعمة المترفة لم يستطع أن يصرفه عن التفكير فى مشكلة الوجود ولغز الحياة، مما جعله يبدو دائما نهبا للهموم، وفريسة للأحزان والخواطر السود. وكانت أحزان الإنسانية وآلامها تنغص عليه صفو حياته وتطيل تفكيره فى قسوة الحياة وظروفها.

ولاحظ ذلك والده فأهمه الأمر، وساءه ميل الأمير الشاب إلى الوحدة والاعتزال والاستغراق فى الأفكار والتأملات، فعمل على أن

يجنبه رؤية المرضى وسماع أخبار الموتى ومعرفة ما يبتلى به الناس طول العمر والإمعان فى الشيخوخة، وحرص على ذلك خشية أن يدفع التفكير فى شقاء الحياة ابنه إلى التنسك والتماس الوحدة فى جوف الغابات وقنن الجبال فلا يجد للإمارة وارثا من ذريته.

ويروى الرواة أن الأمير الشاب خرج من قصره ذات يوم وسار فى الطرقات مثل عامة الناس، فرأى شيخا هرما قد نالت منه الشيخوخة، فتركت رؤيته فى نفسه أثراً باقيا، وخرج من القصر فى اليوم التالى فوقعت عينه على رجل مريض قد شفه المرض وأنهكه الداء، فعاد إلى القصر حزينا مغموما، فلما خرج من قصره للمرة الثالثة شاهد ميتا محمولا إلى القبر.. فعاد يفكر فى مشاهداته الثلاثة ويقلبها على جوانبها المختلفة، فما هذه الشيخوخة التى تسلب الإنسان قوته ونضارته واستمتاعه بالحياة؟ وما هذه الأمراض التى تجعل حياته عذابا متصلا ونكبة مستمرة؟ وما هذا الموت الغامض المبهم الذى يجعل الإنسان جثة هامدة ورمة بالية..؟ وما هذه الحياة الإنسانية المستهدفة دائما للشيخوخة والمرض والموت؟ إنها مشكلة كبيرة جديرة بأن يتخلى الإنسان عن كل علاقاته بأقرب الناس إليه وعن كل آماله الخاصة ومطالبه الفردية ليفرغ لها ويحاول تفسيرها ومعالجة لغزها.

لقد صار يرى الحياة مأساة عامرة بالكوارث والنوازل والآلام والأحزان وعثرات الحظ، وكان كل ما يشاهده حوله يزيده ألما

وحزنا.. وقع بصره مرة على العمال الكادحين الذين يحرثون الأرض، فرآهم يعملون جميعهم فى وهج الشمس اللافحة، سواء الصغير السن منهم أو الشيخ المتهدم، وقد شحبت وجوههم وعلتها قترة، وتفصد العرق منها، وبان عليهم الكلال والإعياء، ونمت عيونهم عما يعانون من كرب وبلاء .... وأبصر الثيران التى تجر المحاريث وهى تجهد وتلهث ألسنتها وقد أدمت السياط ظهورها... فعاد أدراجه إلى قصره وقد تكاثرت عليه الهموم والأحزان، وآلمه شقاء الإنسان والحيوان.

فقال لنفسه «إن هذه الدنيا قوامها الألم، وليس بها سوى الشقاء، فإذا كان هناك طريق للخلاص والنجاة فأين هو؟ إنى من اليأس فى سجن»

ولا نستطيع أن ننكر دوافع هذه المؤثرات فى نفس بوذا... لقد امتلأت نفسه بالحسرة على ما يعانيه الناس وما ينتظرهم من مصير ... فآثر البحث عن تفسير لمشكلة الحياة، وفى ذات الوقت زهد فى ملذاتها وخاف من غدرها... فأخذ يعد العدة للرحيل والخلاص من أصفاد الحواس، واستبدل بثيابه الفاخرة ثيابا خشنة بسيطة، وجز عقدة الشعر التى كان يلبسها لتدل على أنه من سلالة الآريين الأشراف، وتغلب على رغبات النفس ونزوات القلب، وترك زوجته وابنه من أجل البحث عن طريق الخلاص للإنسانية، وكانت سنه حينذاك لا تتجاوز التاسعة والعشرين، لقد ترك كل شىء، وذهب ليعيش مشاكل الحياة ويقابلها وجها لوجه.

ولقد التمس بوذا النصح والإرشاد لدى مجموعة من النساك، وذهب فى عزلة فى أحشاء الغابات، فهناك فى الهدوء الشامل تقيم الاستنارة، وكان يحمل مزودًا ليقدم له المحسنون من الطعام ما يقيم أوده. . . فماذا يعنى ذلك؟ عامل نفسه بنظام صارم، وقسا عليها قسوة شديدة، وأذاقها الجوع المضنى والظمأ الشديد، ولزم الخلوة والانقطاع للفكر والتأمل، وكان يجلس طويلا صامتا بغير حراك حتى كانت الطيور والوحوش تتحرك من حوله غير خائفة، فانجلى أمامه الظلام، وتلقى الاستنارة وأبصر طريق الخلاص؛ لأنه دخل النرڤانا حيث الأمن والسلام فى عالم الصفاء والنقاء والهدوء والسكينة.

وقضى البوذا حياته فى الإرشاد متنقلا من مكان إلى مكان، وكان أينما حل يوصى بالتخلص من قيود الجهل والشهوة، ووهم تفرد النفس والتعالى، وغلبة الحواس واقتلاع الحزن من القلوب. . . . فالتف حوله الكثير من المؤمنين بمبادئه، وانتشرت تعاليمه فى غالبية أرجاء الهند، وذاعت شهرة تعاليمه التى تدعو إلى الخلاص من أصفاد الحواس ومن قيود الحب الأرضى، واقتلاع الأحزان من القلوب، والرضا بما يقيم الأود حتى ولو كان من البقايا، وتلمس النجاة من النفس.

كان يقول: اعلموا أيها الأصدقاء أن كل شىء سيشيخ، فضعوا الشيخوخة نصب أعينكم.

ـ ما من مجتمع إلا وتفرق

ـ إن البشرية مثل أسراب الطير التى تعيش على شجرة أثناء الليل، ويتفرق شملها عند تبلج الفجر

كونوا لأنفكم جزائر قائمة بذاتها، وكونوا لانفسكم موائل (جمع موئل) وكهوفا

كونوا لأنفسكم مصابيح، ومارسوا الحقائق.

ـ إذا أساء إلىَّ امرؤ بغباء رددت إليه الإساءة حبا خالصا.

وإذا مازاد فى حماقته زدت تسامحا، عبير الحق يعبق لناحيتى دائما وسموم الشر تلفح المسىء.

ولقد ظل البوذا محتفظا بوداعته وهدوء نفسه وسيادة حلمه، حتى بعد أن تقدمت به السن وأوهنته الشيخوخة، ولكنه إلى اللحظة الأخيرة كان يحاول أن يرسل الضوء الذى يبدد الظلمات، ويملأ النفوس بهجة وسلاما، وكانت آخر كلمات البوذا ـ اذكروا أيها الإخوان أن التقلب والتبدل والزوال كامن فى الأشياء المركبة، فاعملوا على خلاص أنفسكم بجد واهتمام.

من أقوال بوذا ... (جواتاما الحكيم) لحوارييه :

ما هو أمضى سلاح؟ ..... الكلمة.

ما هو أقتل سم ؟ ..... الحقد

ما هى أقسى نار؟ ..... الشهوة

ما هى أحلك ليلة؟ ..... الغباء

من هو الخبيث؟ ..... من يأخذ من الناس بلا امتنان

ما هو أمنع حصن؟ ..... الصبر

ما هو أروع سلاح؟ ..... الحكمة

من هو أخطر لص؟ ..... الشر

ما هو أعظم كنز؟ ..... الفضيلة

ما هو أقسى ألم؟ ..... عذاب الضمير

ما هى أعظم متعة؟ ..... أن تعطى

ما الذى يخرب العالم؟ ..... الجهل

ما الذى يفسد الصداقة؟ ..... الأنانية

ما هو أقسى مرض؟ ..... الكراهية

ما هى النار التى لا تحرق ولا يخمدها المطر ولا تقتلها الرياح؟

فعل الخير.

بعض مراجع الكتاب

- The outline of abnormal psychology.

By: Murphy and Bachrach.

University of Virginia.

- How the Mind works

Sereil Bert,

Univerity of London

- New Methods of Education.

- هيلين كيلر معجزة التربية

- Psychology and Mental Health

.J. A Hadfield.

- Emotions By James Lange.

- الأحلام ـ سيجموند فرويد.

- أبو حامد الغزالى ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

ـ عبقرية عمر ـ عباس محمود العقاد.

ـ الرؤيا الإبداعية ـ أشرف على جمعها هاسكل بلوك، هيرمان سالنجر.

- Modern Psyohology - Wilyam James

ـ مجلة علم النفس الحديث.

ـ مجلة الدراسات الروحية ـ لندن.